الاستشراق مرة أخرى[1]

تأليف: إدوارد سعيد
ترجمة: كريم بجيت
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك

في ربيع 1994 كتبت ملحقا لمؤلف "الاستشراق" حاولت في إطار توضيح ما اعتقدت أنى قلته فيه وما لم أقله، أن أؤكد ليس فقط على أهمية النقاشات الكثيرة التي برزت إلى الوجود منذ صدور كتابي في سنة 1978، ولكن أيضا على الطرق التي من خلالها أصبح مؤلف (مثل مؤلفي) يعالج التمثيلات حول الشرق بدوره عرضة على نحو متزايد لتمثيلات وتأويلات خاطئة. كون أني أجد نفسي اليوم أشعر بالسخرية أكثر من

1. نشر هذا المقال بمجلة Development and Change 35 : 5 (2004) ص. 879-869، وكان في الأصل نص المحاضرة التي قدمها الراحل إدوارد سعيد بمؤسسة الدراسات الاجتماعية بلهاي في 21 ماي 2003 بمناسبة حصوله على الدكتوراه الفخرية من المؤسسة المذكورة. وقد نشر سعيد نسخة مختصرة من هذا النص في أسبوعية الأهرام الإلكترونية بعنوان مختلف وهو "Preface to Orientalism". انظر. Al-Ahram Weekly Online : 7 - 13 August 2003 (Issue No . 650).
تجدر الإشارة إلى أن هذا النص الذي نقدمه للقارئ في ترجمة جديدة هو من بين أخر ما كتب سعيد ويأتي أسابيع قليلة بعد الاجتياح الأمريكي للعراق.

الانزعاج حول حدوث الأمر نفسه هو علامة على مدى زحف العمر علي مع ما يوازي ذلك من تناقص طبيعي في التوقعات وفي الحماسة التربوية التي غالبا ما تؤطر الطريق نحو الأقدمية (seniority) فالوفاة الحديثة لأهم اثنين من الموجهين لي على المستوى الفكري والسياسي والشخصي وهما إقبال أحمد وإبراهيم أبواللغد (الذي كان أحد الأشخاص الذين أهديت إليهم كتابي "الاستشراق") أحدث في نفسي إحساسا بالحزن والضياع، كما ولّد عندي شعورا بتقبل الأمور وإرادة عنيدة على المواصلة. ليست المسألة أبدا الشعور بالتفاؤل، ولكن بالأحرى الاستمرار بالإيمان بتطور ولانهائية مسلسل التحرر والتنوير الذي في رأيي يحدد ويوجه مسار الرسالة الفكرية.

غير أن مصدر الاندهاش بالنسبة لي هو أن مؤلف "الاستشراق" لا يزال يناقش ويترجم في مختلف أنحاء العالم بست وثلاثين لغة. بفضل جهود صديقي وزميلي العزيز البروفسور كابي بيتربرغ (Gaby Piterberg) من جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس (UCLA)، هناك في المتناول نسخة من الكتاب بالعبرية أثارت نقاشات ومناظرات جديرة بالاعتبار بين القراء والطلبة الإسرائيليين. وبالإضافة إلى ذلك، صدرت ترجمة فيتنامية برعاية أسترالية. أرجو أن لا يكون من الادعاء القول بأن فضاء فكريا هنديا صينيا قد انفتح على مقترحاتي. وفي جميع الأحوال فإن من دواعي سروري كمؤلف لم يحلم قط بمثل هذا القدر السعيد لكتابه أن أسجل أن هذا الاهتمام بما حاولت القيام به لم يضمحل تماما خصوصا في البقاع الكثيرة المختلفة للشرق نفسه.

إلى حد ما هذا بالطبع يرجع إلى كون مواضيع الشرق الأوسط والعرب والإسلام لا تزال تؤجج تحولا وصراعا وجدالا كبيرا، وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور حربا هائلة. كما قلت قبل سنين عديدة، مؤلف "الاستشراق" هو حصيلة ظروف هي في الأساس بل في الجوهر غير قابلة للتحكم. في سيرتي الذاتية "خارج المكان" (1999) قدمت وصفا للعوالم الغريبة والمتناقضة التي نشأت فيها، وزوّدت نفسي وقرائي بتفسير مفصل للمحيط الذي أعتقد أني منه تشكلت في فلسطين ومصر ولبنان. لكن تلك لم تعدو أن تكون رواية شخصية لم تتناول كل سنوات التزامي السياسي التي بدأت بعد الحرب العربية الإسرائيلية في1967، وهي حرب لا زالت في خضم تداعياتها المتمثلة في احتلال إسرائيل العسكري للأراضي الفلسطينية وهضاب الجولان تتواصل شروط الصراع والأفكار المختلف حولها

والتي كانت لها أهمية قصوى بالنسبة لجيلي من العرب والأمريكيين. ومع ذلك أود أن أؤكد مرة أخرى أن ما خول إنتاجي الفكري عموما هو في الواقع حياتي كأكاديمي جامعي. إذ رغم عيوبها ومشاكلها الملحوظة في الغالب، فإن الجامعة الأمريكية وجامعة كولومبيا التي أنتمي إليها بالخصوص هي إحدى الأماكن القليلة المتبقية في الولايات المتحدة حيث التأمل والدراسة يمكن تحقيقهما على نمط يكاد يكون مثاليا. لم أدرّس أبدا شيئا عن الشرق الأوسط نظرا لتكويني وتجربتي كأستاذ للعلوم الإنسانية الأوروبية والأمريكية وكمتخصص في الأدب المقارن الحديث. لكن الجامعة وعملي التربوي فيها مع جيلين من الطلبة من الطراز الأول ومع زملاء ممتازين أتاحا لي إنجاز نوع الدراسات التأملية والتحليلية التي تحتويها أعمالي ومنها "الاستشراق"، حيث أقوم بالتركيز على الثقافة والفكر والتاريخ والسلطة بدلا من السياسة المرتبطة بالشرق الأوسط في شكلها المباشر. تلك كانت فكرتي منذ البداية وهي اليوم جلية جدا وأكثر وضوحا من ذي قبل.

على أي حال فمؤلف "الاستشراق" مرتبط جدا بالدينامكية الصاخبة(tumultuous dynamics) للتاريخ الحديث. فقد ألححت في كتابي على أن لا لفظة الشرق ولا مفهوم الغرب لهما مدلول وجودي ثابت. كليهما مؤسس على جهد إنساني بعضه تأكيد وبعضه تماهي (identification) مع الآخر. كون أن هذه الخرافات العظيمة (supreme fictions) يسهل استغلالها وتأطيرها للعواطف الجماعية لم يكن قط بمثل هذا الوضوح كما هو الحال اليوم. فحشد الخوف والحقد والاشمئزاز وانبعاث روح الاعتزاز بالذات والغطرسة (ومعظم هذه الخصائص لها ارتباط بالإسلام والعرب كطرف و"نحن" الغربيين كطرف ثان(تظل مشاريع ذات تأثير كبير جدا[2].

الصفحة الأولى في كتابي "الاستشراق" تستهل بوصف آني للحرب الأهلية اللبنانية سنة 1975 والتي انتهت في 1990؛ لكن العنف والاستباحة الفظيعة لدماء البشر لا زالت مستمرة إلى هذه اللحظة. لقد مررنا بإخفاقات مسلسل أسلو للسلام وانطلاق

2. يستعمل سعيد ضمير جمع المتكلم كنوع من مقاربة الخطاب الرسمي والشعبي الأمريكي، وهو قطعا لا يتبنى هذا الخطاب كما يتبين من السياق.

الانتفاضة الثانية والمعاناة المريعة للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة التي تم اجتياحهما من جديد. فطائرات ف 16 ومروحيات أباتشي الإسرائيلية تستعمل بشكل روتيني ضد المدنيين العزل كجزء من العقاب الجماعي. ولقد برزت إلى الوجود ظاهرة التفجير الانتحاري التي أفرزت أثارا مدمرة بشعة ليست أقل فظاعة وإيحاء بنهاية العالم من أحداث 11 شتنبر وما تلاها من الحروب على أفغانستان والعراق.

في الوقت الذي أكتب هذه الأسطر، فإن الاحتلال الإمبريالي الغير القانوني والغير المرخص به للعراق من طرف بريطانيا والولايات المتحدة لازال مستمرا يحدث التخريب المادي والاضطراب السياسي لدرجة تثير الارتياع في كل من يتأمل فيهما. هذا كله جزء مما يفترض أنه صدام الحضارات الذي لا نهاية له ولا سبيل لتغييره ولا حلول له، ولكني لا أعتقد ذلك.

أود لو كان بإمكاني القول بأن الفهم العام للشرق الأوسط والعرب والإسلام في الولايات المتحدة قد تحسن نسبيا؛ لكن للأسف هذا لم يحصل بعد. لأسباب عديدة الوضع في أوروبّا يبدو أفضل بكثير. في الولايات المتحدة، المواقف المتصلبة واشتداد التعميمات المحطة بالكرامة والمقولات الإنتصارية للذات وسيطرة القوة الفجة المستندة على نظرة متعالية وتبسيطية للمعارضين والآخرين[3]. كل ذلك وجد معادله المناسب في النهب والسلب والتدمير الذي لحق مكتبات ومتاحف العراق. مالا يستطيع زعمائنا والمتزلفون لهم من المثقفين إدراكه هو أن التاريخ لا يمكن محوه مثلما تمحى السبورة حتى يتسنى لنا (نحن الأمريكيون) أن نكتب تاريخنا المستقبلي الخاص بنا هناك، ونفرض أشكال الحياة عندنا على هؤلاء الناس "الدونيين" ليتّبعوها. إن من الشائع قي واشنطن وغيرها سماع كبار الموظفين يتحدثون عن تغيير خريطة الشرق الأوسط كما لو أن المجتمعات العريقة وأعدادا هائلة من البشر يمكن هّزهم بقوة مثلما تحرك حبات الفول السوداني في جرة. لكن لطالما حصل هذا

3. يميز سعيد بين المعارضين سواء في أوروبا أو باقي دول العالم وبين الآخرين الذين و إن لم يقفوا موقف المعارضة الصريحة لسياسات الولايات المتحدة مثل كوبا و إيران وكوريا الشمالية، فإنهم بحكم اختلافهم الثقافي والعرقي واللغوي والديني معرضون لنفس التصورات السلبية وإن بدرجة أقل حدة؛ وينطبق هذا على الدول العربية والإفريقية والآسيوية.

الأمر مع "الشرق"، ذلك المتخيل الذي يكاد يكون أسطوريا حيث منذ اجتياح نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر ظل الشرق يُبني ويُركب مرات لا عدّ لها من طرف السلطة المتصرفة عبر أشكال من المعرفة الملائمة لتأكيد أن تلك هي طبيعة الشرق وأن علينا التعامل معها وفق ذلك. وفي خضم ذلك فإن الرواسب التاريخية التي لا عد لها وهي تضم تجارب تاريخية لا تحصى وتشكيلات عجيبة من الشعوب واللغات والتجارب والثقافات، كل هذا يشطب جانبا أويتم تجاهله أو يحال إلى كومة الرمل بمعية كل الكنوز التي نهبت من مكتبات ومتاحف بغداد وتم سحقها وتحويلها إلى شظايا تافهة. إن رأيي هو أن التاريخ يُصنع من طرف الرجال والنساء كما أنه يمكن أيضا أن يدمَر التاريخ وتعاد صياغته فيطاله ما يطاله دوما من أنواع الصمت والحذف ومن الأشكال المفروضة عليه والتشوهات التي يلزم التعايش معها حتى يصبح 'مشرقنا'(نحن الأمريكيون) هو الشرق الذي نريده لأنفسنا لنمتلكه ونسيره.

يجب أن أوضح مرة أخرى بأنه ليس لي تصور لشرق 'حقيقي' يمكنني الدفاع عنه. لكن في المقابل لدي تقدير عال للمقدرات والمواهب التي تمتلكها شعوب تلك المنطقة للدفع قدما من أجل تصورهم لما هم عليه وما يريدون أن يصبحوا. لقد لحق المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة هجوم شديد وعدواني بشكل مدروس انصبّ على تخلفهم وانتفاء الديمقراطية لديهم وإبطالهم لحقوق النساء لدرجة أننا نسينا أن أفكارا مثل الحداثة والتنوير والديمقراطية ليست مطلقا مفاهيم بسيطة متفق عليها يمكن للفرد أن يعثر أو لا يعثر عليها مثلما يعثر على بيض عيد الفصح في حجرة الجلوس. إن اللامبالاة المثيرة للإعلاميين الساذجين الذين يتحدثون باسم السياسة الخارجية (الأمريكية) والذين يفتقدون إلى فكرة حية وإلى أي معرفة باللغة التي يتكلم بها الناس الحقيقيون كانت وراء ابتداع صورة للشرق على أنه مجال قاحل جاهز لأن تنشأ فيه القوة الأمريكية نموذجا بديلا لديمقراطية السوق الحرة، دون أن يكون هناك أدنى تشكك بأن مثل هذه المشاريع لا يمكن وجودها خارج أكاديمية لاكا دو كما تخيلها سويفت (Swift)[4].

4. أكاديمية لاغادو هي مؤسسة خيالية مستوحاة من رواية "رحلات غاليفر" (*Gullivers Travels*) لمؤلفها الإنجليزي جوناثان سويفت، وفيها يروي البطل في رحلته الثالثة في الفصلين الخامس والسادس أخبارا ==

ما أود الدفاع عنه أيضا هو أن هناك فرق بين معرفة شعوب وأزمنة أخرى أساسها الفهم والرحمة والدراسة والتحليل المتأني دون أي دوافع أخرى وبين المعرفة (إن كانت كذلك على أي حال) التي هي جزء من الحملة الشاملة لتأكيد الذات والمعاداة أو الحرب كلية. هناك فرق عميق بين إرادة للفهم من أجل التعايش وتوسيع الأفاق الإنسانية وبين إرادة الهيمنة من أجل التحكم والسيادة الخارجية. إنه من المؤكد أن أحد الكوارث الفكرية في التاريخ هو أن تجهز حرب إمبريالية من طرف مجموعة صغيرة وغير منتخبة من الموظفين الأمريكيين (لقد أطلق عليهم الصقور المفترسة للدجاج لأنه لا أحد منهم انخرط في الخدمة العسكرية) وتشن ضد دولة ديكتاتورية مدمرة من العالم الثالث على أسس إيديولوجية خالصة لها علاقة بالهيمنة الدولية والسيطرة الأمنية وبالموارد النادرة، ولكن هدفها الحقيقي مقنع يستعجلها ويبررها مستشرقون خانوا وظيفتهم كأكاديميين مختصين. إن أهم عناصر التأثير في مؤسسة البنتاغون ومجلس الأمن القومي في عهد جورج بوش هم أشخاص مثل برنارد لويس وفؤاد عجمي المتخصصين في العالمين العربي والإسلامي اللذان ساعدا الصقور في الإدارة الأمريكية على الاعتقاد بوجود ظواهر تثير السخرية مثل مفهوم العقل العربي والانحطاط الإسلامي المتواصل لقرون عديدة والذي وحدها القوة الأمريكية تستطيع تغييره[5]. هناك اليوم محلات لبيع الكتب في الولايات المتحدة ممتلئة بكتابات بالية تحمل عناوين صارخة حول الإسلام والإرهاب أو الإسلام والتهديد العربي والخطر الإسلامي، وكلها من تأليف سياسيين احترفوا الجدل ممن يدّعون امتلاك المعرفة والآخرين

== عن أكاديمية لاغادو العظيمة ومشاريعها العجيبة. وقد نشر سعيد مقالا يحمل عنوان "أكاديمية لاغادو" بمجلة *London Review of Books* بتاريخ (LRB، Vol. 25 No. 8 dated 17 April 2003) تناول فيه إخفاقات السياسة الخارجية الأمريكية وطيش ساستها وقلة دراية خبراء السياسة والمستشارين المعتمدين لدى الإدارة الأمريكية ممن يؤيدون استعمال القوة ضد الأعداء الخارجيين سواء في أفغانستان أو العراق. ويشبه سعيد وزارة الدفاع و البيت الأبيض بأكاديمية لاغادو حيث ورش المشاريع العجيبة والمثيرة للسخرية.

5. في مقال أكاديمية لاغادو يفرد سعيد حيزا لا بأس به للحديث عن الخلفيات الفكرية والثقافية لكل من برنار لويس المستشرق البريطاني الأصل صاحب كتابات عديدة عن الإسلام والعرب آخرها مؤلف *What Went Wrong ?*، تتسم كلها بالسلبية الشديدة والتعميم الفج، وفؤاد عجمي المحلل السياسي اللبناني الأصل الذي تحول من مدافع عن الحقوق الشرعية الفلسطينية إلى متحدث باسم الأوساط الصهيونية في الإعلام الأمريكي شأنه في ذلك شأن برنار لويس.

من المختصين الذين يزعمون أنهم نفذوا إلى أعماق تلك الشعوب الشرقية الغريبة هناك والتي كانت وما تزال شوكة مؤلمة في جسد الغرب. ويصاحب هذه المعرفة التي تحض على الحرب، الحضور الدائم لقنوات CNN و FOX، بالإضافة إلى عدد هائل من مضيفي الراديو اليمينيين والمبشرين وكمّ لا يحصي من الجرائد الصفراء وحتى المتوسطة الثقافة منه،ا كلها تعيد استهلاك نفس الأوهام والتعميمات الفجة الغير المتحقق منها حتى يتم إثارة "أمريكا" ضد هذا الشر الخارجي.

لو كان العراق رغم إخفاقاته الشديدة وطاغيته المرعب الذي ساهمت السياسة الأمريكية في تنصيبه قبل عقدين أكبر مُصدر في العالم للموز أو البرتقال لما كانت هناك حرب ولا هستيريا حول أسلحة الدمار الشامل التي اختفت فجأة بقدرة قادر، ولا كان هناك نقل لقوات هائلة من الجيش والبحرية والطيران مسافة سبعة ألاف ميل بعيدا عن قواعدها لتدمر بلدا يكاد يكون غير معروف حتى بالنسبة للمتعلمين من الأمريكيين وكل ذلك باسم الحرية. لو لم يكن هناك حس منظم بأن الناس هناك في الشرق ليسوا مثلنا ولا يقدرون قيمنا (وهذا هو جوهر تعاليم الاستشراق التقليدي) لما كانت هناك حرب.

وهكذا فإنه من صميم هذه المؤسسة (directorate) نفسها التي أفرزت المختصين المحترفين المستأجرين ممن جندهم الفاتحون الهولنديون الذين أخضعوا ماليزيا وأندونيسيا ومثلهم ممن استخدمتهم الجيوش البريطانية في الهند والهلال الخصيب ومصر وغرب إفريقيا وكذلك الجيوش الفرنسية في الهند الصينية وشمال إفريقيا، من صميم هذه المؤسسة جاء المستشارون الأمريكيون الذين يعملون لصالح وزارة الدفاع والبيت الأبيض، يستعملون نفس الكليشيهات ونفس المقولات الجاهزة التحقيرية ونفس المسوغات لتبرير استخدام القوة والعنف في هذه الحالة (احتلال العراق) كما استخدمها غيرهم في السابق. إذ أن القوة كما يرددون جميعهم هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الآخرون. لقد انضم إلى هؤلاء الأشخاص جيش كامل من المتعاقدين الخواص والمقاولين المتحمسين الذين سيُوكل إليهم كل شيء ابتداء من كتابة النصوص المدرسية والدستور إلى إعادة صياغة الحياة السياسية العراقية وصناعته البترولية. كل إمبراطورية تعلن في خطابها الرسمي على أنها ليست كالآخريات، وبأن الظروف التي قامت فيها هي ظروف خاصة وأن عليها رسالة تقوم بها وهي أن تنور وتحضِّر(الشعوب) وتحقق النظام والديمقراطية، وأنها تستعمل القوة فقط كحل أخير. لكن ما

يبعث على الحزن أكثر هو أن هناك دائما مجموعة من المثقفين المستعدين للإدلاء بكلمات مطمأنة حول مدى لطف ومحبة هذه الإمبراطوريات للشعوب الأخرى كما لو أنه يجدر بنا أن لا نصدق ما نراه بأعيننا من تدمير وبؤس وموت جلبته هذه الإمبراطورية ذات الرسالة الحضارية.

إحدى الإضافات الأمريكية المميزة فيما يتعلق بالخطاب حول الإمبراطورية تتجلى في القاموس المتخصص المستعمل من طرف خبراء السياسة. لستَ بحاجة إلى اللغة العربية أو الفارسية أو حتى الفرنسية لتخطب في الناس بأن الديمقراطية على شاكلة ما تفرزه نظرية الدومينو (democracy domino effect) هي بالضبط ما يحتاجه العالم العربي[6]. فخبراء السياسة المولَعون بالسجالات والذين يفتقدون إلى الدراية بدرجة تبعث على الحزن والذين لا تتعدى تجربتهم الدولية محيط واشنطن العاصمة يصدرون كتبا دورية حول الإرهاب والليبرالية، أو حول الأصولية الإسلامية والسياسية الخارجية الأمريكية أو حول نهاية التاريخ وكلها تتنافس من أجل إحراز الاهتمام وإحداث التأثير دون أي اعتبار للصدق أو التفكير الجاد أو المعرفة الحقّة. ما يهم هو الانطباع الذي يمنحه الكتاب حول فعاليته وبراعة مؤلفه أو من يمكن أن يُقبل عليه من القراء. وأسوأ ما في هذا النوع التبسيطي من الكتابة هو أن المعاناة الإنسانية بكل شدتها وآلمها يتم مواراتها. إن الذاكرة ومعها الماضي التاريخي يتعرضان للطمس كما يدل على ذلك التعبير الأمريكي الشائع والممعن في الازدراء: "أنت أضحيت من الماضي".

بعد مرور 25 سنة من صدور مؤلف "الاستشراق" لازالت هناك أسئلة حول ما إذا كانت الإمبريالية الحديثة قد انتهت إلى الأبد أو أنها لازالت متواصلة في الشرق منذ دخول نابليون إلى مصر قبل قرنين من الزمن. قيل ويقال للعرب والمسلمين بأن خطابهم حول كونهم ضحايا واستمرارهم في الحديث عن ويلات الإمبراطورية هو فقط سبيل للهروب من

6. المقصود هنا هو إحداث تغيير سياسي في منطقة معينة تكون له انعكاسات مباشرة وقوية على باقي الدول تماما مثل لعبة الدومينو حيث يحتم استعمال قطعة واحدة إنزال قطع أخرى تحمل نفس الأعداد وتؤثر في مسار اللعبة. وهذا يعني عمليا تحويل خارطة الشرق الأوسط من دول معادية لإسرائيل إلى مناطق مسالمة وحتى متحالفة مع أمريكا وإسرائيل.

المسؤولية في الوقت الحاضر. "أنتم فشلتم وسَلَكتم الطريق الخطأ"، يقول المستشرق المعاصر. هذه بالطبع أيضا مساهمة نايبول (V. S. Naipaul) في مجال الأدب[7]، ومفادها أن ضحايا الإمبراطورية لا يفتأون يندبون حضهم العاثر، بينما بلدا نهم في تدهور مستمر. ولكن يا لها من نظرة سطحية للتغلغل الإمبريالي تستخف بالمدى الهائل للتشويه الذي أحدثته الإمبراطورية لعقود في حياة الشعوب ممن تعتبره أقل شأنا أو رعايا من الأجناس الأخرى (subject races)! كم تتجنب هذه النظرة مواجهة السنوات المتواصلة التي ظلت خلالها الإمبراطورية تؤثر في حياة الفلسطينيين والكنغوليين والجزائريين والعراقيين! نحن نسلم عن حق بأن الهولوكست (Holocaust) غيّر بشكل دائم وعينا المعاصر. لماذا لا نعترف بأن هناك تحولات فكرية مماثلة أفرزها الاستعمار ولا يزال يفرزها الاستشراق؟ تأمّل في المسار الذي بدأ مع نابليون واستمرَ مع قيام الدراسات الاستشراقية ثم السيطرة على شمال إفريقيا ليتواصل بعدها من خلال مشاريع شبيهة في فيتنام ومصر وفلسطين، وطوال القرن العشرين من خلال الصراع حول البترول والهيمنة الإستراتجية في الخليج والعراق وسوريا وفلسطين وأفغانستان. ثم تأمّل في المقابل بروز التيار القومي المناهض للاستعمار خلال المدة القصيرة من الاستقلال الليبرالي ومرحلة الانقلابات العسكرية والتمرد والحرب الأهلية والتطرف الديني والنزاع اللاعقلاني والوحشية المعنة ضد أحدث مجموعة السكان الأصليين (natives). كل واحدة من هذه المراحل والفترات أنتجت بدورها أشكالا موازية خاصة بها من المعرفة المشوَهة حول الآخر ومن الصور الاختزالية والجدال المستعر.

إن منهجي الفكري كان هو إعمال رؤية نقدية إنسية (humanistic critique) لفتح مجالات الصراع وتقديم سلسلة متعاقبة ذات أفق واسع من التفكير والتحليل لتعوض تلك الانفجارات السجالية القصيرة وذلك الغضب الذي يشل التفكير ويحبسنا داخل تصنيفات وجدال عدائي غايته الوصول إلى هوية جماعية ميالة إلى الحرب بدل التفاهم والتحاور الفكري. لقد أطلقت على ما أحاول فعله اسم الإنسية (humanism)، وهي كلمة لا أزال

7. روائي بريطاني مرموق من أصول هندية ولد ونشأ بترينداد (Trinidad)، حصل على جوائز أدبية كثيرة أهمها جائزة نوبل للآداب في 2001. له روايات ورحلات عديدة، تميز بانتقاده الشديد للعرب والمسلمين وكذلك السود والهنود.

أستعملها بعناد رغم أنها منبوذة من طرف نقاد ما بعد الحداثة من ذوي الثقافة الرفيعة. وما أعنيه بالإنسية هو أولا محاولة تفكيك تلك القيود الفكرية المصاغة على شاكلة بلايك (Blake's mind- forged manacles) حتى يمكن إعمال العقل في المدى التاريخي والعقلاني من أجل الفهم المتأمل والكشف الحقيقي. وبالإضافة إلى هذا فالإنسية مدعومة بشعور من الارتباط الجماعي بمترجمين ومجموعات وأزمنة أخرى. وهكذا وبشكل صارم يتضح أنه ليس هناك ما يمكن تعريفه بالمفكر الإنساني المعزول. ومعنى هذا أن كل مجال مرتبط بمجال آخر، وأنه ليس هناك شيء في عالمنا معزول وخال تماما من كل تأثير خارجي. الجانب المحزن هو أنه كلما أوضحت لنا الدراسة النقدية للثقافة بأن هذا هو واقع الحال، كلما تراجع تأثير هذه الرؤية وتزايدت مساحة الاستقطابات الاختزالية من مثل الإسلام في مقابل الغرب.

بالنسبة للبعض منا ممن دفعتهم الظروف إلى أن يعيشوا حياة فيها تعدد ثقافي يشمل الإسلام والغرب، فإن هناك مسؤولية فكرية وأخلاقية خاصة طالما شعرتُ بها اتجاه ما نقوم به كمتخصصين ومثقفين. قطعا أنا أعتقد أنه من الواجب علينا بأن ننظر بعمق ونفكك تلك التركيبات الاختزالية وذلك النوع التجريدي والمؤثر من الفكر الذي يقود العقل بعيدا عن التاريخ والتجربة الإنسانية وإلى عوالم من الخيال الإيديولوجي والجدال الميتافيزيقي والانفعالات الجماعية. ليس معنى هذا أنه لا يمكننا الحديث عن قضايا الظلم والمعاناة. ولكن يتحتم علينا دائما القيام بذلك في إطار فسيح تتقاسمه مجالات التاريخ والثقافة والواقع الاقتصادي والاجتماعي. دورنا هو إفساح مجال النقاش واسعا وليس وضع الحدود بشكل يتوافق مع السلطة السائدة. لقد أمضيت جزءا كبيرا من حياتي خلال الخمس والعشرين سنة الماضية في تأييد حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره الوطني، ولكني حاولت دائما أن أفعل ذلك مع اعتبار تام لواقع الشعب اليهودي وما عاناه من اضطهاد وإبادة جماعية. والشيء الأسمى هو أن الصراع من أجل المساواة في فلسطين/إسرائيل يجب أن يوجَه نحو هدف إنساني وهو التعايش السلمي وليس المزيد من القمع والإنكار. ليس صدفة أن أشير أن للاستشراق ومعاداة السامية الحديثة جذور مشتركة. لذلك يبدو أن هناك حاجة ماسة للمثقفين المستقلين أن يقدموا دائما نماذج بديلة لتلك النماذج التبسيطية والمقيدة لحرية الفكر والمؤسسة على العداء المتبادل الذي ساد في الشرق الأوسط وأماكن أخرى لمدة طويلة.

دعوني الآن أتحدث عن نموذج بديل مختلف له أهمية قصوى بالنسبة لي في عملي. كشخص منتم إلى التيار الإنسي مجاله الأدب، فأنا مخضرم بشكل كاف حيث أنه قبل أربعين عاما قدر لي أن أحصل على تكوين في مجال الأدب المقارن الذي يرجع أصل أفكاره الرائدة إلى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. قبل ذلك علي أن أنوه بالمساهمة الأكثر إبداعا لجيامباتيستا فيكو (Giambattista Vico) الفيلسوف والعالم اللغوي النيوليتاني الذي سبقت وفيما بعد أثرت أفكاره في سلسلة المفكرين الألمان الذين أنا بصدد استعراضهم. هؤلاء المفكرون ينتمون إلي عهد هردر (Herder) وولف (Wolf) يتبعهم فيما بعد جوتة (Goethe) وهامبولت (Humboldt) وديلثي (Dilthey) ونيتش (Nietzsche) وكادامر (Gadamer) يليهم في النهاية العلماء اللغويون الرومانسيون الكبار في القرن العشرين وهم اريك اوربا خ (Erich Auerbach) وليوسيترز (Leo Spitzer) وإرنست روبرت كورتيس (Ernst Robert Curtius). بالنسبة للشباب من الجيل الحالي فإن مفهوم الفيلولوجيا نفسه يوحي بشيء آثري وكثيف لدرجة لا تصدق، لكنه في الواقع أكثر الفنون التأويلية أساسية وإبداعا. ويتمثل لي هذا على نحو رائع في اهتمام جوته بالإسلام عموما وبحافظ (Hafiz) على الخصوص، وهو الشغف الذي تملكه وقاده إلى نظم ديوان ويس ستليشر (West-stlicher Diwan) وأثّر في أفكاره اللاحقة حول أدب العالم (Weltliteratur)، أي دراسة كل التجارب الأدبية في العالم كسيمفونية متكاملة يمكن فهمها نظريا على أنها حافظت على الخصوصية الفردية لكل عمل دون أن يغيب عنها البعد الشمولي.

هناك مفارقة كبيرة إذن في إدراك ما يحدث؛ إذ بينما يتجه العالم اليوم المطبوع بالشمولية نحو التقارب على مناح تبعث على الأسف كما سبق أن أشرت، فإننا قد نكون بصدد الاقتراب من ذلك النوع من التوحيد القياسي (standardization) والتجانس الذي من أجل منع حدوثه تحديدا صيغت أفكار جوته.

في مقال نشر سنة 1951 بعنوان فيلولوجيا أدب العالم (Philologie der Weltliteratur) يعلن إريك أوربا خ الموقف نفسه في بداية مرحلة ما بعد الحرب العالمية والتي كانت أيضا بداية الحرب الباردة. كتابه العظيم "المحاكاة" *(Mimesis)* الذي نشر في بيرن عام 1946، رغم أنه كتب حين كان أوربا خ لاجئا من الحرب يدرّس اللغات الرومانسية في اسطنبول، كان القصد منه أن يمثل ميثاقا لطبيعة الواقع المتنوع والعمل كما هو مصور في الأدب الغربي

مند هوميروس إلي فرجينيا وولف. لكن من خلال قراءة المقال الصادر في 1951، يشعر المرء بأن أورباخ نشد من الكتاب العظيم الذي ألفه أن يكون مرثاة لحقبة كان الناس فيها قادرين على تأويل النصوص من الناحية اللغوية والعملية والإحساسية والحدسية وذلك عبر الاستعانة بالمعرفة المكتسبة وتمكن ممتاز من لغات متعددة لتدعيم هذا النوع من الفهم الذي دافع عنه جوته في رؤيته للأدب الإسلامي.

المعرفة الايجابية باللغات والتاريخ كانت ضرورية، لكنها لم تكن قط كافية لأكثر من تجميع الحقائق العملية لتشكيل منهج مناسب لفهم ما يعنيه مؤلف مثل دانتي (Dante). والشرط الأساسي لهذا الفهم الفيلولوجي الذي تحدث عنه وحاول تطبيقه أورباخ وآخرون ممن سبقوه كان الولوج بشكل متعاطف وذاتي إلى حياة النص المكتوب وتصوره وفق رؤية مؤلفه والزمن الذي ينتمي إليه. وبدلا من النفور والعداء تجاه زمن أخر وثقافة مختلفة، فإن الفيلولوجيا كما يتم تطبيقها حيال أدب العالم تستلزم طاقة إنسانية عميقة تستعمل بسخاء وإن جاز لي القول بمضيافية (hospitality). وهكذا فإن المؤول يوجِد بشكل فاعل مكانا لذلك الآخر الأجنبي. وهذه العملية الخلاقة لإيجاد موضع لأعمال تكون أجنبية وبعيدة هو أهم واجهة للمهمة الفيلولوجية للمؤول.

كل هذا طبعا تم تقويضه وتدميره في ألمانيا من طرف الاشتراكية القومية. بعد الحرب أشار أورباخ بكل حزن إلى أن التوحيد القياسي للأفكار والمزيد من التخصص المعرفي ضيقا تدريجيا فرص ذلك النوع من العمل الفيلولوجي الذي مثله والمؤسَس على التقصي والمساءلة اللامنتهية للنص.

وبكل آسف فإن الحقيقة التي تبعث على المزيد من الكآبة هي أنه منذ وفاة أورباخ في 1957، تقلصت فكرة وممارسة البحث الإنسي سواء في درجة انتشاره أو موقعه المركزي. إن ثقافة الكتاب المؤسسة على البحث في الأرشيفات والمبادئ العامة للعقلية التي دعمت في الماضي التيار الإنسي كحقل تاريخي قد اختفوا تقريبا. وبدلا من القراءة بالمعنى الحقيقي للكلمة، فإن طلابنا اليوم غالبا ما ينصرف اهتمامهم نحو المعرفة المتشظية التي يتيحها فضاء الانترنيت ووسائل الإعلام. والأسوأ من ذلك فإن التعليم مهدد من طرف التعاليم القومية والدينية التي تنشرها وسائل الإعلام حين تركز بشكل يهمش التاريخ ويهيج المشاعر على حروب إلكترونية بعيدة تعطي المشاهدين الإحساس بأنها عمليات جراحية بينما في الواقع

تقوم بالتعتيم على المعاناة الشديدة والدمار الذي تحدثه الحرب الحديثة "النظيفة". ومن خلال تحويلها لعدو غير معروف إلى شيطان تصنفه في خانة الإرهابي حتى يظل الناس في هياج وغضب، فإن الصور الإعلامية تجذب اهتماما كبيرا ويمكن أن تستعمل في أوقات الأزمات وانعدام الأمن على منوال ما حدث بعد فترة الحادي عشر من شتنبر. وبصفتي كأمريكي وكعربي، لابد أن أطلب من القارئ أن لا يقلل من قيمة ذلك النوع من الرؤية المبسطة للعالم التي قامت قلة من كبار المسئولين المدنيين في وزارة الدفاع بصياغتها خدمة للسياسة الأمريكية في العالمين العربي والإسلامي. ومضمون هذه الرؤية هو الإرهاب والحرب الاستباقية وتغيير النظام السياسي بشكل أحادي مسنودا بأضخم ميزانية عسكرية في التاريخ، وهي الأفكار الأساسية التي يدور حولها الجدل باستمرار وبشكل تبسيطي في وسائل إعلام حددت لنفسها مهمة تقديم ما يسمى بالمتخصصين حتى يبرروا الخط السياسي العام للحكومة. يجب أن أشير أيضا أنه ليس من قبيل الصدفة بأن الجنرال شارون الإسرائيلي الذي قاد اجتياح لبنان في 1982 وقتل 17.000 من المدنيين في خضم ذلك كي يغير الحكومة اللبنانية، هو الآن شريك في السلام مع جورج بوش، وأن في الولايات المتحدة على الأقل لم تكن هناك معارضة كافية للمقولة المشكوك بها بأن القوة العسكرية وحدها يمكن أن تغير خريطة العالم.

إن التأمل والنقاش والحجة المنطقية والمبدأ الأخلاقي المؤسس على فكرة علمانية مفادها أن الكائنات الإنسانية تصنع تاريخها الخاص بها، كل هذا تم استبداله بأفكار مجردة تمجد الظاهرة الاستثنائية الأمريكية والغربية وتنتقص من أهمية دور المحيط الثقافي وتنظر إلى الثقافات الأخرى بازدراء. قد يقول قائل إني أكثرت من الانتقالات المفاجئة بين التأويل الإنسي من جهة والسياسة الخارجية من جهة أخرى وأن مجتمعا حديثا يقوم على التكنولوجيا ويملك بالإضافة إلى القوة الغير المسبوقة، الإنترنيت وطائرات ف 16 لابد في النهاية أن يُحكم من طرف خبراء أشداء في السياسة التقنية (formidable technical-policy experts) من مثل دونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل. لا أحد من هذين الشخصين سيقوم بأي قتال فعلي حين تنطلق الحرب بشكل عملي. لأن ذلك سيترَك لرجال ونساء آخرين أقل حظا. لكن الشيء الذي ضاع حقا هو الإحساس بتماسك وترابط الحياة الإنسانية والتي لا يمكن اختصارها في صيغة معينة أوتركها جانبا باعتبارها غير مهمة.

وحتى اللغة المستعملة في الحرب المزمع خوضها تجرد الناس إلى أبعد الحدود من كرامتهم الإنسانية: "سنذهب إلى هناك، نطيح بصدام وندمر جيشه بضربات دقيقة ونظيفة وسيرى الجميع بأن ذلك كان شيئا رائعا". هكذا صرح أحد أعضاء الكونغرس على شاشة التلفزيون الوطنية. يبدو لي بأنه من الدلالات العميقة على صعوبة هذه المرحلة التي نمر بها أنه حين ألقى نائب الرئيس الأمريكي تشيني خطابه المتشدد في 26 غشت 2002 حول ضرورة الهجوم على العراق، فقد كان المتخصص الوحيد حول الشرق الأوسط المساند للتدخل العسكري ضد العراق الذي استشهد به شخص أكاديمي عربي والذي باعتباره مستشارا مدفوع الأجر لوسائل الإعلام على نحو ليلي لا يفتر يردد كرهه لشعبه وتخليه عن أصوله. وبالإضافة إلى ذلك فهو مسنود في جهوده من طرف اللوبيات العسكرية والصهيونية في الولايات المتحدة. وهذه الخيانة لدور المثقف هي علامة كيف أن الأسئلة الأصيلة يمكن أن تنحط إلي شوفينية وشعور وطني زائف.

هذا جانب واحد من النقاش الكوني. في البلدان العربية والإسلامية الوضع ليس أفضل. فكما أوضحت رولا خلف (Roula Khalaf) في مقال ممتاز نشر في بالفينانشل تايمز (Financial Times) بتاريخ 4 شتنبر 2002، المنطقة انزلقت في موجة من العداء السهل لأمريكا يكشف قلة الفهم لما تعنيه الولايات المتحدة كمجتمع. بما أن الحكومات نسبيا عاجزة على التأثير في السياسة الأمريكية تجاهها، فإنها تحول طاقاتها لقمع وتركيع شعوبها مما يؤدي إلى الاستياء والغضب وإلى اللعانات التي لم تفد شيئا في فتح تلك المجتمعات التي غلبت فيها على الأفكار العلمانية حول التاريخ والتطور الإنساني مشاعر الفشل والإحباط، وبرزت فيها نزعة إسلامية مبنية على الحفظ المكرر وعلى إلغاء كل ما ينظر إليه على أنه أشكال مختلفة ومنافسة من المعرفة العلمانية. أضف إلى هذه الإخفاقات العجز عن تحليل وتبادل الأفكار في إطار هذا العالم المتنافر عموما من الخطابات المعاصرة. إن الغياب التدريجي لتجربة الاجتهاد الإسلامي الرائعة كان ولا يزال أحد أكبر الكوارث الثقافية في زماننا ما يجعل التفكير النقدي والصراع الفردي ضد مشاكل العالم المعاصر يتواريان عن الأنظار ليحل محلهما التعاليم والمعتقدات الصارمة.

ليس المقصود أن العالم الثقافي (the cultural world) تراجع بكل بساطة في مقابل تيار استشراقي جديد معاد من جهة وتيار قائم على الرفض الشامل من جهة أخرى. فالقمة العالمية

للأمم المتحدة التي انعقدت في جوهنسبرغ عام 2002 رغم كل أشكال القصور التي شابتها كشفت في الواقع عن مساحة واسعة من القلق العالمي المشترك الذي تشير تمظهراته الدقيقة (المرتبطة بقضايا من قبيل البيئة والمجاعة والفجوة بين الدول المتقدمة والسائرة في طريق النمو والصحة وحقوق الإنسان) إلى بروز كتلة انتخابية جديدة حظيت بالترحيب تعطي لمفهوم العالم الواحد المبسط في غالب الأحيان قيمة استعجالية جديدة. ومع ذلك علينا الاعتراف بأنه ليس بإمكان أحد إدراك الوحدة والاندماج الشديد التعقيد للعالم الذي يعيش في إطار العولمة، رغم أن العالم كما أسلفت القول في البداية ترتبط أجزاءه بعضها ببعض على نحو لا يترك مجالا حقيقيا للانعزال.

النقطة التي أود أن أختتم بها الآن هي الإلحاح على أن الصراعات الرهيبة التي تختزل الأمور وتَسوق الناس مثل القطعان تحت مسميات موحِدة زائفة مثل أمريكا أو الغرب أو الإسلام، وابتداع هويات جماعية لأعداد هائلة من الأفراد الذين هم في الواقع في غاية الاختلاف، لا يمكن أن تستمر على القوة التي هي عليها الآن. ولابد أن تتم معارضتها ويقلص بشكل كبير تأثيرها المميت وقوتها التعبوية. لازال رهن إشارتنا مهارات التأويل العقلاني التي هي تركة التربية الإنسية ليس كنوع من التقوى الوجدانيه (sentimental piety) التي تحثنا على العودة إلى القيم التقليدية أو إلى كتابات الفلاسفة الإغريق والرومان، ولكن كممارسة نشيطة للخطاب الدينوي والعلماني والعقلاني. العالم العلماني هو عالم مبني على التاريخ ومن صنع البشر. إن العنصر البشري معرض للتحقيق والتحليل ومن واجبه الإدراكي أن يعي وينتقد ويؤثر ويحكم. وفوق هذا وذاك إن الفكر النقدي لا يخضع لسلطة الدولة ولا لأوامر تلزمه بالالتحاق بالصفوف للزحف ضد عدو تم تحديده سلفا. وبدلا من صدام الحضارات المختلق، علينا أن نركز على التفاعل المتآني للثقافات التي تتداخل فيما بينها وتقتبس من بعضها البعض وتعيش سويا على مناح أكثر فائدة مما يمكن أن يتيحه أي شكل من التفاهم المجتزأ أو الزائف. ولكن حتى نحقق هذه الرؤية الواسعة نحتاج إلى الوقت وإلى البحث الطويل الأناة والقائم علي التشكيك والمساءلة المستمرة يعززه الإيمان بدور مجتمعات التأويل (communities of interpretation) التي يصعب دعمها في عالم يطالب بالفعل ورد الفعل الفوري.

الإنسية ترتكز على عنصر الشخصية الفردية الإنسانية وعلى الحدس الذاتي بدلا من الأفكار الجاهزة والسلطة المعرفية المصدق عليها. النصوص يجب أن تحلّل كنصوص نشأت

وتستمر في البقاء في العالم التاريخي بجميع أشكاله الدنيوية كما سبق أن سميتها. ولكن هذا لا يقصي في أي حال من الأحوال السلطة كما توضحها التلميحات وتداخلات السلطة (imbrications of power) حتى في أكثر الدراسات غموضا.

أخيرا وهو الأمر الأكثر أهمية، الإنسية هي الشكل الوحيد بل أستطيع القول الأخير من المقاومة التي تبقّى لنا ضد الممارسات اللاإنسانية والمظالم التي تشوه التاريخ الإنساني. اليوم لدينا ما يحرضنا على القيام بذلك. فالمجال الديمقراطي المشجع جدا لفضاء الانترنيت مفتوح لكل المستعملين بطرق لم تحلم بها الأجيال السابقة سواء من الحكام الطغاة أو من التعاليم المتزمّة. لم يكن ممكنا أن تقوم الاحتجاجات عبر العالم قبل نشوب الحرب في العراق لولا وجود جماعات بديلة في شتى بقاع العالم لديها وسائل معرفية بديلة ووعي قوي بمشاكل البيئة وحقوق الإنسان والنزاعات التحررية التي توحدنا جميعا في هذا الكوكب الصغير.

إن الرغبة الإنسانية والإنسية للتنوير والتحرر لا يمكن إرجاؤها رغم القوة الهائلة للمعارضة الموجهة ضدها من أمثال رامسفيلد وبن لادن وشارون وبوش. أود أن أصدق بأن لعملي مكان في هذا المسار الطويل والمتقطع نحو الحرية الإنسانية.